على ضفتى قناة السويس

؟ كيف فوجئنا؟

يشكل أبراهام آدان – قائد سلاح المدرعات الإسرائيلى فى حرب أكتوبر – فى هذا الفصل من كتابه « على ضفتى قناة السويس » – ما بدأه فى الفصل الأول . الا أنه يعرض بالتحليل للكيفية التى تمت بها المفاجأة . ويعود بذاكرته إلى ما تم على الجبهة المصرية من استعدادات قبل اليوم بدءا من حرب الاستنزاف حتى عام ٧٣ . وكيف ان اسرائيل لم تلتفت للاجراءات التى اتخذها الرئيس السادات للإعداد لهذا اليوم . ويصور للقارئ الإسرائيلى الخطة المصرية التفصيلية للعبور . كما يغلب على اسلوبه فى هذا الفصل الندم القصور العقلية الإسرائيلية وعجزها عن فهم مغزى ما دار على الجبهة المصرية – والذى أدى فى النهاية إلى هذا اليوم الذى لم ينقع فيه هذا الندم .

تأليف : ابراهيم ادات

عرض وتعليق : حسام الدين رشاد

لم أتصور قط أن تجرى الحرب على الجبهة الجنوبية فى حرب عبد الغفران على النحو الذى تمت عليه . كنت واثقا أننا سنتلقى إنذارا بالحرب قبل بدايتها بـ ٤٨ ساعة على الأقل .

وكنت واثقا أننا سنحشد من البعثة قواتنا فى الوقت المناسب . وكنت واثقا أن سير العمليات سيجرى وفق الخطط التى أعددناها سلفا . ولكن شيئا من هذا لم يحدث على الإطلاق وهكذا الحرب وعلى المحرون – وحارية المصريون على طريقهم . وبدا لنا أنا ، أيها طيبة ، فى أيديهم . ولكى نفهم ما حدث لنا فيما بعد ، فإن علينا أن نعود إلى الوراء لنتذكر كيف استعد المصريون لهذه الحرب .

إن الجبهة المصرية لم تعرف الهدوء عقب حرب الأيام الستة . على الرغم من أننا كنا من الناحية التكتيكية فى حالة وقف إطلاق النيران . ففى ٨ سبتمبر ٦٨ فتح المصريون نيران مدافعهم وبصورة مكثفة على مواقعنا فى القطاع الشمالى من القنطرة إلى بور فؤاد .

وبكثافة من جراء ذلك خسائر بلغت ١٠ من القتلى و٩٨ من الجرحى . وكانت هذه الخسائر رغم فدائيتها كبيرة بالمفاهيم الإسرائيلية . وبعد حوالى شهر ونصف – فى ٢٩ أكتوبر وجه لنا المصريون ضربة أخرى مؤلمة حيث فتحوا نيران مدافعهم على طول جبهة القناة (١٩٠ كيلو مترا) واستمر القصف لمدة تسع ساعات . ولم تفلح غاراتنا فى إسكات مدافع المصريين . كنت أثناك بأنا قائد سلاح المدرعات العميد بسرائيل طال . ودعيت أنا والعميد طال لاجتماع مع رئيس الأركان آنذاك الفواء حاييم بارليف ليخبرنا فيه أنه اتفق مع وزير الدفاع على دعم الدفاع عن سيناء بلواء مشاة آخر . وبولبت قيادة قوات المدرعات فى سيناء آنذاك . ولم يكتف المصريون بتعنيف مواقعنا بل أخذ المصريون يعبرون القناة ويحتلون لنا المكان . وبدا أن الاستمرار فى العبور المصريين وبكيفيتنا حسائر فى الأرواح أمر يفوق طاقاتنا . فكنا نلجأ إلى تعبئة كتائب الاحتياط لفترات طويلة . الأمر الذى كان يستنزفنا كانت مشكلتنا الكبرى هى كيفية وقف هذا الاستنزاف وفى يناير ١٩٧٠ تولى شارون قيادة المنطقة الجنوبية . وكثيرا ما تساءل :

« لماذا يتعمق المصريون علينا حياتنا بقذائفهم على طولنا ومركزهم يعلنون فى هدوء ؟ » ولكن سرعان ما أدرك شارون أن تعميق حياة المصريين وعدم تركهم فى هدوء لم يكن بالأمر الهين . فبعد رفض متكرر سمح له بتنفيذ عملية « فيكتوريا » الخاصة بعبور كتيبة مشاة إسرائيلية القناة بقوارب المطاط والإغارة على المواقع المصرية . وراح ضحية هذه العملية ١٨ جنديا إسرائيليا حقا لقد كان الثمن غاليا . ولم نعد نفكر فى العبور مرة أخرى .

وفى النهاية وبعد محاولات متكررة فى البحث عن حل يوقف استنزاف المصريين لنا . اهتدينا إلى استخدام السلاح الجوى فى الهجوم وشل مسرح العمليات إلى أرض العدو . ولكن لكل عملة وجهان . إذ دفع تفوقنا الجوى المصريين إلى تحريك صواريخهم ودفعها إلى القناة . وبناء حائط ضخم من الصواريخ المضادة للطائرات والدبابات . وساعدهم فى ذلك وقف إطلاق النيران . هذه الصواريخ التى لعبت الدور الأكبر فى إلى ذراع سلاحنا الجوى

ولكن لماذا لم ينجح الجيش الإسرائيلى ، وخاصة سلاح الطيران فى إحباط عملية العبور المصرى فى عام ١٩٧٣ ؟ ولكى نجيب على هذا السؤال ، نستعرض مدى داهل المجهود الحربى المصرى من الاستعدادات . لقد بدأ المصريون حرب الاستنزاف فى مارس ٦٩ بهدف تمكين الجيش المصرى من الاستعداد والتدريب على مواجهة الجيش الاسرائيلى ولاستنزاف الجيش الإسرائيلى وإرهاقه ماديا وزيادة اعتماد اسرائيل على الولايات المتحدة الأمر الذى يرغمها فيجعلها تضغط على إسرائيل للانسحاب من سيناء (هذا فضلا عن تورطها فى فيتنام) . وانتهت هذه الحرب بقرار وقف إطلاق النيران فى ٨ أغسطس ٧٠ بعد مأساة وجهود وجهود ونزيح

السادات . من الجهود الدبلوماسى والإحباط . إلى الحاجة لقرار الحرب

مات عبد الناصر فى سبتمبر ٧٠ – وتولى بعده السادات . لقد ورث حالة الجمود العسكرى والسياسى بالمنطقة . لقد أدرك عبد الناصر المسئول عن هزيمة ٦٧ . أن تحرير الأرض سيستغرق زمنا طويلا . أما السادات فقد أحس منذ اللحظة الأولى أنه جاء ليحدث تغييرا . وعلى ذلك فوجه – وهو فى بداية طريقه – نشاطه الدءوب من أجل إنهاء الاستعدادات العسكرية ثم وضع جداول – بشكل تهديدى – محددة لبدء الحرب

فقد أعلن ، أن عام ٧١ سيكون عام الحسم .

غير أنه لم يتلق من الاتحاد السوفيتى الأسلحة الكافية لشن الحرب . وفى سنة ٧٢ كلف السادات جيوده لتسليح الجيش المصرى . فقام بزيارة شخصية للاتحاد السوفيتى فى فبراير . وأيضا لم يستجب السوفيت لطلباته . ثم بعث بوزير حربيه الجنرال صادق فى أول يونيو ٧٢ . وأيضا لم يفلح صادق فى تحقيق النتائج المنتظرة . هنا أدرك أن سياسة الوفاق هى التى وراء هذا الرفض السوفيتى . لكنه لم ييأس إذ أرسل رئيس حكومته د . عزيز صدقى فى محاولة أخيرة للحصول على السلاح . لكنه هو الآخر فشل فى الحصول على السلاح . ونجح فقط فى انتزاع اعتراف موسكو بأن الدول العربية لها الحق بناء على ميثاق الأمم المتحدة فى تحرير أراضيها بالوسائل المتاحة . ولم يسمح السادات باستمرار حالة الجمود . ورغم محاولاته المتكررة فى الحصول على السلاح اللازم . فور كسر هذا الجمود . لقد طلب من وزير الحربية – صادق – تنفيذ البديل العسكرى . فقد كانت خطط العمليات العسكرية لتحرير سيناء والمعروفة باسم « جرانيت ١ » لاتعد فى أدراج هيئة الأركان المصرية . إلا أن « صادق » كان يرى أن الجيش المصرى غير مستعد لتنفيذ مثل هذه الخطة والقيام بعملية عسكرية . بينما كان السادات يرى أنه لا يجب الانتظار كثيرا . وبالفعل عرفه فى ٢٦ سبتمبر ١٩٧٢ أى بعد عشرة أيام من عودته من موسكو . وعين خلفا له الجنرال أحمد اسماعيل . ولم يفهم أحد مغزى هذا التغيير . فقد إنه يحاول مرة أخرى التقرب إلى السوفيت . وبين السادات واسماعيل ساد جو من التفاهم . وقام الاثنان بتحديث خطة الحرب . وعدلا الخطة الأولى لتصبح « جرانيت ٢ » . فبدلا من تحرير كل سيناء أكتفى السادات بعبور القناة واحتلال منطقة المرر . والخيطى . وبالتالى عبر إلى الضفة الشرقية للمجرى المائى وبلغ حوالى ١٠٠ كيلو متر فى عمق سيناء .

الرئيس محمد أنور السادات

المشير أحمد إسماعيل

إن دروس حرب ٧٣ وحرب الاستنزاف قد دفعت المصريين للبحث عن حلول تمكنهم من التغلب على أهم عنصرين من عناصر الجيش الإسرائيلي ، وهما السلاح الجوى وسلاح المدرعات . ولم يكتف المصريون ببناء سلاحهم الجوى وسلاح المدرعات الكبيرين . لقد استطاعوا بناء أقوى جهاز صواريخ مضاد للطائرات فى العالم . لقد سلحوا جيشهم وخاصة سلاح المشاة بكم هائل من الوسائل المضادة للدبابات . كما أنهم بذلوا الكثير من الجهد فى رفع مستوى الأداء القتالى لعناصرهم . لقد جندوا كل طرق الخداع لتحقيق النصر ! . لقد درسوا كل جندى وكل وحدة على أهداف محددة وفق خطوط حمله ، جرأت ، العملية . وقاموا بمناورات ضخمة درسوا فيها كل فصائل الأركان والجيش الثالث والجيش الثالث .

لقد أعطى أحمد إسماعيل دفعة هائلة منذ بداية ٧٣ للاستعدادات الفنية والقتالية . فقد تمت إقامة منشآت الجسر على هيئة جسر العبور للمشاة . كما قاموا بعملية ٨٦ منطقة على ضفة القناة لارتفاع يصل إلى ٣٠ مترا لتطل على منطقة سيناء القريبة من القناة كلها . كما أعدوا عشرات الطرق لتسهيل عملية تدريع معدات العبور ودفعها إلى القناة .

لقد درس أغلب قادة الجيش المصرى ومن بينهم أحمد إسماعيل ، الطبيعة القتالية للسويس ، واعتقدوا هنا عندما أتيم سيقدمون عليها درسا . إن الطبيعة السويسية لعبور القناة ترى أن يتم العبور على مرحلتين متتاليتين .

المرحلة الأولى هى مرحلة العبور واحتلال رأس جسر .

الثانية الاختراق من رأس الجسر إلى الأهداف العملية .

على أن تتم المرحلة الثانية بسرعة وبلا أى تباطؤ فور عبور القوات الكافية لعملية الاختراق . على العكس من ذلك فقد وضعت الخطة المصرية ثلاث مراحل ميدانية بدلا من الاثنين اللذين تقول بهما الطبيعة السويسية !

المرحلة الأولى هى العبور واحتلال رأس جسر .

الثانية هى مرحلة التوقف الميدانى .

أما الثالثة فهى الاختراق إلى الأهداف النهائية .

وقد انحطط للمرحلة الأولى ، وهى العبور واحتلال رأس جسر ، حرص المصريون على « سلامة قواتهم » . فبدلا من الاندفاع السريع نحو العمق لتعميق رأس الجسر ولإبعاد مدفعية العدو عن شاطئ الجسر بأقصى سرعة ، ركز المصريون على الانسحاب والاندفاع عن طريق الأجناب ، لتوسيع رأس الجسر . وذلك تحت ستر الأجنحة . وكان هدفهم فى ذلك إقامة رأس جسر مستقر ومحكم وتحمى خلفه مظلة صاروخية واقية . وتحمى مقدمته ستار كثيف من الصواريخ والمدافع المضادة للدبابات . أما مؤخرته فتحميها قناة السويس وورءها مئات الدبابات والمدافع المضادة للدبابات .

لقد تضمنت المرحلة الأولى ، كما تقدم ، عبور القناة واحتلال رأس جسر مستدير يبلغ عمقه من ١٠ إلى ١٢ كيلو مترا حتى صباح الثامن من أكتوبر . ومن المفترض أنهم نجحوا فى نهاية المرحلة الأولى فعلا فى إبعاد المدفعية الإسرائيلية عن مواقعها فى طريق « جيدى » . وقد تكاتفت القوات الطليعية الأولى لتنفيذ هذه المهمة . وقد قامت بالعبور خمس فرق مدرعة . تضمنت كل فرقة لواءى مشاة ولواء ميكانيكى وعززت بلواء دبابات مستقل . ولم تبع عبور المصريين القناة من كل قطاعاتها ، من كتف الأجنحة فقط . بل إن ذلك ساعدهم على تعبر القوات الإسرائيلية .

أما المرحلة الثانية ، وهى مرحلة التوقف الميدانى ، فقد عملت لتمكين المصريين من مواجهة سلاح المدرعات الإسرائيلى والسلاح الجوى الإسرائيلى وفق ظروف تميل بالنسبة له فى معركة دفاعية ثابتة . وقد أراد المصريون أن الجيش الإسرائيلى سيميل وفق عقيدته القتالية ، وهى إنهاء الحرب بسرعة ونقل المعركة إلى أرض العدو وذلك أسفر المصريون سلاح الطيران والمدرعات الإسرائيليين بوابل من الصواريخ المضادة للدبابات والطائرات . وقد ترك المصريون نهاية هذه المرحلة وفق تطورات الموقف . وقد اشتملت القوات المدافعة الجارية الثانية على فرقتين مدرعتين وفرقتين ميكانيكيين ، وكذلك اشتملت على المدفعية ومطاريات الصواريخ أرض - جو .

أما مهمة المرحلة الثالثة ، فقد كانت احتلال المنطقة فى خط ممتد بر والخطاطبة والطور شاملة فيما ثم الجدى ومتلا . وقامت بهذه المهمة فرقتان . الأولى مدرعة والثانية ميكانيكية . ومعظمتان بقوات مدرعة ومشاة من المجموعات القتالية الأولى . وقد قامت الفرقة الأولى وهى من الجيش الثالث بالاختراق إلى ممرى الجدى ومتلا فى حين كانت تهدف الفرقة الثانية ، وهى من الجيش الثانى ، إلى الاختراق إلى طريق الخطاطبة والتقدم جنوبى الجبلين جنوبا إلى الطور وشمالا إلى باجال ثم .

مرحلة العبور .. بالتفصيل :

خطط المصريون بالتفصيل للمرحلة البدائية الأولى الخاصة بالعبور واحتلال رأس الجسر . ثم أعطيت المرحلة الأولى مراحل أخرى ثانوية . لقد رصدوا للمرحلة الأولى من ثلاث إلى أربع ساعات . وكان على خمس فرق مشاة فى هذه المرحلة احتلال رأس جسر بعمق ثلاثة كيلو مترات وبعرض ستة كيلو مترات لكل فرقة من هذه الفرق . بدأوا هذه المرحلة بضربة جوية قامت بها ١٩٠ طائرة هاجمت عمق سيناء إلى مسافة تبلغ ١٠٠ كيلو متر من الجبهة بهدف ضرب مقار القيادة وأجهزة الاتصال وتجمعات الدبابات ومطاريات المدفعية . وقد مهدوا لساعة الصفر (قبل دخول القوات البرية إلى الخنادق) بقصف مدفعى للمرتفعات فيه ١٣٠٠ مدفع . بهدف إسكات النظم الإسرائيلية وتحييد مطاريات مدافعنا وإرباك حركة الدبابات القريبة . وتحت حماية القصف الجوى والقصف المدفعى . وتحت حماية توجيه مباشر للنيران عبرت كتائب المشاة المصرية القناة فى قواربها المطاطية مسلحة بمجاميع هائلة من صواريخ « ا . ت . » وانسكبت بسرعة على مطاريات مدافعنا الحالية عن الخنادق الإسرائيلية بالضفة الشرقية . أما الاستيلاء على نقطة قد أجلوه لمرحلة لاحقة .

وفى خلال ما يقرب من ساعة كان المصريون قد نشروا فى القطاعات الخمسة التى عبرت فيها الفرق المصرية ، أسلحة كثيرة مضادة للدبابات شملت ١٤٠ منصة إطلاق قابل مضادة للدبابات طراز ٧ - آر - بى - جيه ، ومدافع عديمة الارتداد طراز ١٠٦ م . م . وأربع منصات صواريخ طراز ماجار .

وفى خلال الأربع ساعات حتى نهاية المرحلة الأولى ، كانت قد عبرت القناة أسلحة أخرى مضادة للدبابات ، وشمل الستار الحديدى المصرى المضاد للدبابات فى كل فرقة من الفرق الخمس ٣١٤ منصة لإطلاق القابل طراز ٧ - آر - بى - جيه ، و١٠٨ مدافع عديمة الارتداد طراز ١٠٦ م . م ، و٤٨ منصة صواريخ طراز ماجار ، هذا فضلا عن عشرات الدبابات والمدافع المضادة للدبابات الراسخة على الضفة الغربية . هذا لقد كان هذا « الستار » المضاد للدبابات عظيما !

والتعويض وإرباك دبابات التى كانت تبعد عن القناة مسافة من ٣٠ إلى ٥٠ كيلو مترا ، ومنعها من التقدم إلى الجبهة ، فقد كانت لكل فرقة كتيبة كوماندو مزودة بأسلحة مضادة للدبابات . وقامت قوات الكوماندو هذه بالتسلل إلى مسافة ١٥ كيلو مترا من أعمق لتعبر الطرق وتنصب الكمائن والانقضاض على مواقع مدفعية وبطاريات القيادة .

كانت مهمة قوات المشاة الطليعية التى عبرت القناة تمكين سلاح المهندسين المصرى من فتح الثغرات من موانعنا الترابية ، لكى يتمكن هو الآخر المركبات البرمائية من نقل الدبابات والمركبات والمدفعية . وفى نفس الوقت قام سلاح المهندسين المصرى بتشييد الجسور لتعبر عليها القوات . كانت هذه المهمة خطيرة جبارة وعملاقة . لقد تمكن سلاح المهندسين المصرى من فتح حوالى ٦٠ ثغرة فى الموانع الترابية التى امتدت على طول القناة ، مستخدما فى ذلك خراطيم المياه ومعدات هندسية أخرى .

لقد قدر المصريون الوقت الذى سيستغرقه فتح الثغرات وعبور الدبابات لمساعدة قوات المشاة بالفرق الخمس ، سبع ساعات . كما قدروا لعبور الوية المشاة إلى الضفة الشرقية بثلاث ساعات . ولذلك قرروا نقل مشاة الألوية المدرعة إلى الضفة الشرقية بدون دباباتها المجرورة . لكى تنظم وتستعد وتكون فى عمق ألوية المشاة . وبذلك تعد مشاة قوات تكتيكية تأتى فى المرتبة الثانية بعد القوات الأولى . وكان من المنتظر أن يتم التلاقى على المنطقة بعد أربع ساعات من العبور . ولذلك استعمل المصريون قرب حلول الظلام فى إسقاط الكوماندو التى تواجدت فى وقت لاحق قوات الاحتياط التى توقع المصريون وصولها من الشمال البعيد ، من إسرائيل .

وقد أسقط المصريون قوات الكوماندو على أبواب ممرى متلا والجدى الغربية . فى الوسط ، وكذلك أسقطوها بطول الجبال المطلة على خليج السويس . فى الجنوب . وكذلك اسقطوها على الطريق الشمالى العريش - القنطرة . واستطاع المصريون بعد سبع ساعات من بداية الهجوم . نقل ١٢٠ دبابة لكل فرقة فلنيا الطاريات . وبعد عشر ساعات من بداية الهجوم تمكنت الألوية المدرعة وكتائب دبابات المشاة من توسيع ورءوس الجسور حتى وصل عمقها ٨ كيلو مترات وعرضها ١٦ كيلو مترا . وبعد ١٦ ساعة من بداية القتال كان عدد الدبابات قد وصل لكل فرقة إلى ٢١٨ دبابة .

وفى صباح السابع من أكتوبر حتى مساء هذا اليوم تمكنت ألوية الدبابات بالاشتراك مع الألوية المدرعة من تعميق رءوس الجسور إلى مسافة ١٢ كيلو مترا ، ووسعها إلى مسافة ٢٠ كيلو مترا . وبذلك اكتملت المرحلة الأولى للعملية . عند هذه المرحلة ، توقف المصريون ، بذلك بذلك المرحلة الثانية وهى كسر هجمات وفى نفس الوقت نقل قوات ، المرتبة الثانية ، لتنفيذ المرحلة الثالثة .

البقية فى العدد القادم